

اللفظ والعنف في اللغة قراءة لسانية في القصص القرآني

د . كاظم فاضل هادي

جامعة القادسية/ كلية التربية

الملخص..

تهدف هذه القراءة إلى بيان تأثير اللغة في متلقيها وفي البيئة التي تنشأ فيها , ولمح الملطفات والمعنفات الكلامية التي من شأنها أن تسهم في الوظيفة التأثيرية للغة, وقد رسم لنا القرآن الكريم منطقاً سليماً في انتهاج اللين واللفظ في خطاباتها من خلال ما أوحاه إلى أنبيائه لكي يرتقي ونسمو في عطاء الإنسانية , فكان ذلك ميداناً رحباً لنتمسك تلك العناصر والأساليب ونلاحظ مستوى الصراع الفكري الذي عاشه الأنبياء مع أقوامهم وهم يتوسلون عناصر اللغة في التأثير واستمالة المتلقي, ونحن إذ نعيش اليوم عصر الانفتاح والالتقاء بالآخر المختلف , نمارس نشاطنا اللغوي الذي تلقي عليه أمزجة النفس ظلالها , فقد ينتج بعد ذلك ردود أفعال عنيفة تسهم اللغة فيها بإنشاء صراعات تتحول في ظروف مؤاتية إلى مشكلات أسرية أو صراعات جسمية , بل نرى في كثير من الأوقات رؤية دينية معنفة تنتج بصور مختلفة حتى استحالت ثقافة العنف مما يوسم بها المجتمع الإسلامي والتيارات الإسلامية , ومحركها الأول هو الأسلوب الخطابي العنيف أو الانتقائية في تفسير الخطاب الديني, فما أحوجنا إلى الاقتداء بأساليب الأنبياء وتطبيق تلك المناهج لانتزاع سمة العنف من كلامنا , لننعم بعد ذلك بعيش كريم , تسوده اللطافة والطمأنينة .

المقدمة

نزل القرآن الكريم وهو يهدف إلى التأثير في مجتمع يعتز بكل قيمه وثقافته البدوية والجاهلية ويرى ذلك الاعتزاز من المفاخر التي تستحق أن يسجى دونها ولا تمس بكلام ، وكانت اللغة من أفر مفاخرهم ، فإذا نبغ لديهم الشاعر أذاعوا به فرحين ومفاخرين ، وكانت سلاطة لسانه كالسيف تنزل في قبائل يهجوها فتعود منتكسة راياتها أمام العرب، فالكلمة تحمل رمزيها، وتكتنز أبعادها النفسية والثقافية والاجتماعية فليس غريباً بعد كل هذا أن ينزل القرآن مشذباً ومهذباً ومقوماً لما اعوج ، ومستعملاً تلك اللغة متحدية بها أبناءها في أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أن يحذوا حذوه ، وإن بدا العجز فيهم إلا أن الاقتداء والنظر فيه هو من جملة الوسائل التي اتخذها القرآن في التأثير فيهم ، إذ كان النظر فيه يعدّ بمثابة المحفز للقراءة والتمعن والاقتداء على مستوى الشكل والمضمون ، فهي ، من ثم ، وسيلة إشهارية يتقصد فيها انتحاء سمت الأسلوب .

لقد أقام القرآن الكريم صراعاً فكرياً كبيراً في سبيل إنقاذ الإنسان من جاهلية تقبع خلفها ترسبات فكرية حرفت مسار الإنسانية، فاستعمل في ذلك وسائل التأثير اللغوية، لطفاً أو عنفاً ، لتحقيق هدفه السامي ، ومن أظهر ما ورد فيه خطابات الأنبياء التي تنبئ عن منهجية في استلطاف الآخر ، في حين كانوا يقابلون بعنف لغوي كبير كما يذكر النص الكريم.

إن تلك الثنائية : اللطف / العنف ، تمتد عن ظاهرة حية في خطاباتنا اليومية ، ولئن كان ميدان البحث في اللغة العربية الفصحى وفي القرآن الكريم ، فإن لغتنا الدارجة وحياتنا اليومية تمتلئ بوسائل اللطف والعنف والتأثير ، ولقد شاعت ألفاظ العنف وأساليبه في مجتمعاتنا اليوم حتى تداخلت مع الحب الذي هو رمز اللطف والرفق والحياة ، فتجد عبارات الموت دليلاً على الحب ، وإذ نقف على تلك الوسائل اللغوية في خطاب الأنبياء مع أقوامهم، نروم تقديم مقارنة عن تجسيد ظاهرة اللطف والعنف في اللغة ، ووسائل التأثير التابعة لهما ، ليتسنى لنا الاقتداء بالأسلوب السليم في التعامل مع الآخر .

١ - مفهوم اللطف والعنف في اللغة والاصطلاح :

جاء في معجم مقاييس اللغة : (اللام والطاء والفاء: أصلٌ يدلُّ على رفقٍ ، ويدلُّ على صغرٍ في الشيء ، فاللُّطْف: الرِّفْق في العَمَل؛ يقال: هو لطيفٌ بعباده، أي رؤوفٌ رفيق. ومن الباب الإلطاف للبعير، إذا لم يَهْتَدِ لموضع الضَّرَبِ فألْطَفَ له)^١ ، وجاء في لسان العرب : (يقال لطف به وله بالفتح يَلْطُفُ لُطْفًا إذا رَفَّقَ به ، فأما لُطْف بالضم يَلْطُفُ فمعناه صغرٌ ودقٌّ ، ... واللَّطِيفُ من الأجرام والكلام ما لا خفاء فيه وقد لُطِفَ لُطَافَةً بالضم أي صغرٌ فهو لَطِيفٌ وجارية لطيفة الخَصْرُ إذا كانت ضامرة البطن واللَّطِيفُ من الكلام ما غَمَضَ معناه وخَفِيَ واللُّطْفُ في العمل الرفق فيه)^٢ ، فاللُّطْف الذي نحن بصددده هو الذي من جنس الأعمال ، وهو الرفق ، لأن الكلام اللطيف ينظر إليه من جانبين : جانب الخفاء والغموض ودقة الملحظ إذا نظرنا إليه من جانب التفسير والفهم ، وجانب الرفق واللين إذا نظرنا إليه من جانب العمل الكلامي المنجز ومدى تأثيره في الواقع .

والعنف في اللغة : ضد الرفق ، قال الخليل : (العُنف: ضدُّ الرفق. عَنَفَ يَعْنُفُ عُنْفًا فهو عنيفٌ. وعَنَفْتَهُ تعنيفًا، ووجدت له عليك عُنْفًا ومشَقَّةً ، وَعُنْفُوانُ الشَّبَاب: أوَّلُ بهجته، وكذلك النَّبَات،.... واعتَنَفْتُ الشيءَ كرهته)^٣ وقال ابن فارس: (العين والنون والفاء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الرِّفْق. قال الخليل: العُنف: ضدُّ الرِّفْق. تقول عَنَفَ يَعْنُفُ عُنْفًا فهو عنيفٌ، إذا لم يَرْفُقْ في أمره. وأعنفته أنا. ويقال: اعتنفْتُ الشيءَ، إذا كرهته ووجدت له عُنْفًا عليك ومشَقَّةً. ومن الباب: التعنيف، وهو التَّشْدِيدُ في اللوم. فأما العُنْفُوانُ فأوَّلُ الشيءِ، يقال عُنْفُوانُ الشَّبَاب، وهو أوَّلُه، فهذا ليس من الأوَّل، إنَّما هذا من باب الإبدال، وهو أنَّ العينَ مبدلةٌ من همزة، والأصل الأنْف؛ وأنْفُ كلِّ شيء: أوَّلُه)^٤ .

ولا تكاد تخرج المعاجم العربية الأخرى عن هذا المعنى ، فكل معاني العنف تتصل بالشدة والكرهية وعدم الرفق بالشيء ، ومن هذا المعنى المعجمي أخذ اللطف والعنف اصطلاحهما في نظريات علم النفس والاجتماع واللغة، فاللطف في التعبير: وسيلة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه ، ويميل المتكلم إلى استعمال هذه الوسيلة مع كل شيء مقدس أو ذي خطر أو مثير للرعب والخوف ، كما يطبقه على الأشياء الشائنة أو غير المقبولة لدى النفس^٥ ، ويعد العنف إحدى الظواهر المجتمعية المنتشرة في العالم ، ولا تقتصر على فئة عمرية معينة ، وهو عبارة عن قوة جسدية أو لفظية أو حركية تصدر من طرف ما باتجاه طرف آخر، فتلحق به الأذى النفسي أو الجسدي^٦ ، وجاء في موسوعة لالاند الفلسفية أن العنف هو (مايجري بقوة عاصفة ضد ما يعترضه ، ... ، (و) في الكلام على المشاعر أو الأعمال : المزايا نفسها التي تكاد تقترن بها دوماً فكرة أن المقصود هي دوافع خارجة عن الإرادة : (انفعال شديد ، رغبة شديدة) مع ذلك يمكن عند

الاقتضاء الحديث عن فعل ، عن كلام (عنفي قصداً) لكن هذا قد يشكل استثناءً ، وفي هذه الحالة تكون هناك دوماً فكرة نوع من التماثل)^٧

ونقرر هنا أن اللفظ والعنف يحصلان بوسيلة اللغة المستعملة من خلال كلمات أو أدوات ووسائل يوظفها المتكلم للتعبير عن حالات الرضا والمحبة والاطمئنان النفسي والاتزان، أو الغضب والحقد المتفاقم والتوتر النفسي ، بوعي تام أو بدونه ، فاللغة مرآة الفكر ، فالعنف هو السلاح الأخير لإعادة شيء من الاعتبار المفقود إلى الذات من خلال التصدي مباشرة أو مداورة للعوامل التي يعتبرها مسؤولة عن ذلك التبخيس الوجودي الذي حل به ، العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين ، حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي)^٨، وبصفة الإرادة يختلف مفهوم العنف عن مفهوم الاندفاعية ، إذ يتمحور الاندفاع على الميل التلقائي إلى الفعل وهو حافز لا سوي يحتكم إلى نزوات ورغبات قوية فينتج تسرع في السلوك من دون التفكير بالنتائج ، ومن ثم يطلق وصف الانفعالي على الشخصية التي لا تقوى على تحمل الضغوط ولا تتمالك نفسها في حالات نفسية معينة^٩ .

٢ _ اللفظ والعنف في الأداء الكلامي

لنا أن نسأل هل اللفظ والعنف موجودان في اللغة على الحقيقة؟ وهل يتشكلان داخل اللغة؟ وكيف يمكن أن نستدل على لطف الكلمة أو عنفها ؟ وما المؤدى في ذلك أهو اللفظ نفسه أم المعنى ؟ إن هذه الأسئلة تحيلنا إلى علاقة اللغة بالفكر ، وأثر اللغة بالواقع ، وإلى سؤال المعنى الأزلي، ولا يخفى أنه من الصعب جدا الفصل بين التفكير واللغة، فاللغة وسيلة التفكير والتفكير يحدث باللغة، وبمقدور اللغة أن تعكس كل القضايا الاجتماعية التي تسيّر حياة الناس في بيئة معينة ، ومن ثم تعد اللغة مدخلاً لدراسة المجتمع ، فإذا ما تشعب المرء بالكلمات اللطيفة/العنيفة فإنها تعكس حمولتها الإيجابية/السلبية على التفكير ، فيصبح التفكير ب لطف/عنف ، ومن ثم يستلزم ذلك سلوكاً لطيفاً/عنيفاً يتجلى في العمل الواقعي .

وإذا ما امتد هذا الأمر في الفرد فترة طويلة قد يصبح اللفظ/العنف انطباعاً ذاتياً من الصعب معالجته أو تغييره، ولما كانت اللغة تمثل هوية الفرد وتشكل ثقافته بمفهومها الواسع ، فإن أي خلل فيها يمثل خرقاً لتلك الهوية ، ومن ثم يتسع الأمر للحديث عن لطف/عنف مجتمعي أو أممي بالكامل ، يستصغر فيه من لا

يحمل اللفظ/العنف كسمة مائزة حالها كحال التغيرات الصوتية أو القوة النطقية التي توسم بها مجتمعات معينة , ومن ثم قال الجاحظ : (إن المعنى الحقيق الفاسد والدني الساقط يعيش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ , فإذا ضرب بجرانه ومكن لعروقه , استفحل الفساد وبزل , وتمكن الجهل وقرح , فعند ذلك يقوى دأؤه ويمتنع دواؤه , لأن اللفظ الهجين الردي والمستكره الغبي ألق باللسان وآلف للسمع , وأشد التحاماً بالقلب من اللفظ النبیه الشريف , والمعنى الرفيع الكريم)^{١٠} , فيتبدى اللفظ حسناً أو قبحاً على النفس سلوكاً , يقول جان جاك لوسركل: (فلئن كان هناك شيء يمكن تسميته بعنف في اللغة , فإن هذه الكلمة يجب أن تؤخذ حرفياً ليس عنف الرمز , بل عنف التدخل , عنف حدث لا تمنعه لا ماديته من أن تكون له آثار مادية , وهي ليست آثار استعارية , بل آثار تحول)^{١١} .

إن الكلمة بذاتها وفي سياقها تحمل شحنتها السلبية أو الإيجابية على النفس, أي بالحمولة الدلالية لها , وقد يفضي إحاؤها إلى إيجاد تلك الشحنة , فالكلمة تتصل بأبعاد وتجارب نفسية ماضية , وتتعلق بقضايا وسرديات صغيرة قد ينساها الإنسان بعد فترة من الزمن لكن يبقى أثرها السلبي أو الإيجابي في ظلال الكلمة كجزء من الحمولة الدلالية, واستدعاؤها في الحدث الكلامي بمثابة استدعاء لكل تلك الشحنات, وتحفيز لدلالاتها الهامشية, وتوظيفها في موقف مغاير يكتسب منها ويضيف إليها لاستعمالها في مواقف أخرى , على أن مقياس اللطف والعنف يختلف من جيل إلى آخر في البيئة الواحدة , ومن بيئة إلى أخرى , بحسب طبائع المجتمعات المتغيرة , وهناك ألفاظ تبقى محافظة على حدتها أو لطفها في الاستعمال , وظاهرة "انحطاط المعنى أو رقيّه" ظاهرة عامة في اللغات , فقد ترتقي الكلمة بمعناها إلى اللطف في سلم الاستعمال الاجتماعي وقد تلقي انحطاطاً إلى العنف والحدية الخادشة للمشاعر, وكل هذا تابع إلى حركية معنى اللفظ وتطوره^{١٢} , فالمجتمع اللغوي يفرض سطوته على انتقاء اللفظ الشريف تبعاً لمكانة المتكلم , فاللغة سلوك فعلي قائم على الأصوات , فلذا نجد العرب يتخرجون من الألفاظ المتننية فيستبدلون بها ألفاظاً أخرى لها وقع أقل حدة تحاشياً عن الوقوع في المحذور اللغوي, كما في كثير من الكنايات أو ألفاظ التقاؤل , ويدخل ذلك تحت مسمى التأدب اللغوي الذي شاع في القرن العشرين بوصفه نظرية لسانية على يد العالم بول غرايس^{١٣}

نحن الآن أمام صراع الدوال, صراع الكلمة بسلطانها وتأثيرها على قائلها فضلاً عن متلقيها , فاللغة تضم جميع الحوادث التاريخية وتتضوي على صراعات فكرية قائمة , وسمات اللطف والعنف هي سمات

التفكير بالأصل ، ومؤداها باللغة وروداً وصدوراً ، فقد تفعل بوسائل لغوية تنساب إلى التفكير فتحتله وتفعل فيه كل جوانب الاطمئنان والرفق أو الحقد والكره ، لذلك ندعو إلى تعليم أبنائنا ثقافة اللطف والكلمات والأساليب الحسنة ، ونحذر من لغة العنف ، أو الإكثار من تلقي ألفاظ الإرهاب والتخويف لما تتركه من انطباعات سلبية تنعكس على التفكير ، وقد نهى القرآن الكريم عن استعمال الألفاظ الجارحة للآخر والأساليب التي من شأنها تهوينه اجتماعياً : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) ١١/الحجرات، ولئن كان الحديث عن دور الكلمة في اللطف والعنف من خلال محتواها الدلالي بمختلف تجليات الدلالة ، فإن الأسلوب هو الآخر ينقسم على لطيف وعنيف بحسب المضمون والغايات ، ومن ثم يصح الحديث عن أسلوب لطيف أو عنيف بحسب ما يضمه أو يصرح به من رفق في التعامل أو شدة وتأذية للآخر ، ويمكن إرجاع أسباب اللطف والعنف اللغويين إلى : السبب النفسي كألفاظ الحب والوئام والاطمئنان أو ألفاظ التخويف والإرهاب والاشمئزاز وغيرها ، والسبب الديني كالألفاظ المقدسة والاصطلاحات الدينية اعتداداً أو تهويناً ، والسبب الاجتماعي بحسب موقف الكلام وعناصره كالألفاظ ذات القيم الاجتماعية والدلالات الاعتبارية ، فضلاً عن أساليب : الاعتذار والاحترام والتعظيم أو السخرية والاستهجان أو التهوين والتطير ، بحسب أعراف بيئة التواصل^{١٤} .

والحديث عن العنف اللغوي يستلزم بالضرورة الكلام في صوت الكلمة أو إيقاع الأسلوب ، فاللغة في أصل تعريفها الشائع : (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)^{١٥} تضم نوايا الإنسان وأغراضه ومشاعره، بل تتجلى فيها ظواهر العنف واللطف ، فالدلالة الصوتية قوة أو ضعفاً تحيل على المشاعر والأحاسيس النفسية التي يليقها مرسلها بذلك الصوت أو الإيقاع ، فجملة القضايا التطريزية في الصوت يمكن أن تدرس بوصفها ملطفات أو معنفات لغوية ، فرب قول يصدر بنبرة صوتية حادة يوحي بالعنف ويولد طاقة سلبية لدى المتلقي ، والعكس صحيح .

إن العنف الحاصل داخل اللغة بوصفه مشكلة اجتماعية، من الصعب معالجته خارجها، ينبغي الانطلاق من اللغة ذاتها وتشذيبها من كلمات الإكراه والبغض والإقصاء بكل حقولها الدلالية ، وتغذية المخزون الفردي والجمعي بجملة من الكلمات والأساليب النبيلة التي تسهم في تهذيب أخلاق المجتمع على المدى البعيد ،

وأيسر السبل في ذلك التمسك بالنهج القرآني وما رسمه لنا بطريقة التعامل مع الآخر المختلف فضلاً عن المؤتلف ، قال تعالى : ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) ١٢٥/النحل

إن دراسة ذلك الجانب من النفس واللغة قد تقع ضمن الميتا لغوي ، وليس دلالة الكلمة لذاتها ، إلا أن علماء اللغة المحدثون _ خاصة في علم اللغة الاجتماعي والتداولية _ قد تنبهوا إلى تلك الملطفات أو المعنفات الكلامية بوصفها أساليب في التمازج ، وأدرجوها ضمن مبادئ التأديب ، فمنحها بعضهم دوراً معقولاً في الخطاب مثل لاكوف Lakoff ، ومنحها آخرون الأولوية في الواقعة الكلامية مثل ليتش Leech ، وهناك من حاول منحها الصبغة الكلية من خلال بعض العلامات اللغوية مثل براون وليفنسون Brown&Levinson ١٦ .

٣/اللفظ والعنف في القصص القرآني:

إن لفظ الخطاب يضم ثنائية المرسل/المتلقي ، من حيث دلالاته على عملية التواصل بكل عناصرها ، فحتى في المونولوج الداخلي (الخطاب النفسي) يفترض الإنسان ذاتاً أخرى هي نفسه يحدثها ، وعليه فإن مصطلح (خطاب الأنبياء) يدل على لغة التمازج التي حكاها القرآن الكريم بين الأنبياء وأقوامهم ، وقد صور فيها _ بما تمتلكه اللغة العربية من قدرة تعبيرية _ الحالات الشعورية والجوانب النفسية لمدى القبول والرفض والعنف واللفظ ، قال صاحب الميزان : (أما الأدب في القول فإنك لا تجد فيما حكى من شذرات أقوالهم مع العتاة والجهلة أن يخاطبوهم بشيء مما يسوؤهم أو شتم أو إهانة وإزراء وقد نال منهم المخالفون بالشتم والطعن والاستهزاء والسخرية كل منال ، فلم يجيبوهم إلا بأحسن القول وأنصح الوعظ معرضين عنهم بسلام ،... ولم ينقل عن الأنبياء (عليهم السلام) أن يقابلوهم بخشونة أو بداء بل بالقول الصواب والمنطق الحسن اللين اتباعاً للتعليم الإلهي الذي لقنهم خير القول وجميل الأدب) ١٧ ، كما أمر نبيه الكريم "ص" بقوله : ((وَأِمَّا تَغْرِضَ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا)) ٢٨/الإسراء .

وأظهر ما نطالعه في قصة موسى (ع) ، إذ أمره الله تعالى وأخاه أن يترفقا بالقول مع فرعون ، قال سبحانه : ((ادْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا نِيئًا لَعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)) ٤٢-٤٤/ طه , قال الزمخشري في بيان معنى اللين : (القول اللين . نحو قوله تعالى : ((هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)) ١٨/ النازعات, لأن ظاهره الاستفهام والمشورة , وعرض ما فيه من الفوز العظيم . وقيل : عداه شباباً لا يهرم بعده , وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت , وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته . وقيل : لا تجبها بما يكره , وألفاً له في القول , ... , وقيل : كنيهاً^{١٨} , إذ يفصل صاحب الكشف في ذلك وسائل اللين المتوقعة : استعمال أسلوب الاستفهام والمشورة في تبليغ فرعون الرسالة الإلهية, فيصبح التبليغ الأمري مشورة وعرضاً بدل الأمر المباشر, وهذا متحقق في الآية الكريمة التي ذكرها المفسر, ووسيلة التلطيف الأخرى: الوعد بما يحبه ويرجوه الطرف الحوارية الآخر من النعيم واللذة وغيرها, وهذا الوعد بما يطلبه الإنسان ويحبه يصب في جانب الرفق بالمخاطب بقصد ترويقه نفسياً وإعداده لتقبل الفكرة المطروحة.

والوسيلة الأخرى التي ذكرها الزمخشري: مخاطبته بكنيته وليس باسمه الصريح , وهذا الأسلوب عند العرب فيه ما فيه من التعظيم على الأصل , لما تحمله الكنية من الدلالة على الحنكة والاكتهال المعظم^{١٩} , وذكر الرضي عن الكنية: (إنه لا يعظم المكنى بمعناها, بل بعدم التصريح بالاسم , فإن بعض النفوس تأنف من أن تخاطب باسمها)^{٢٠} , فحملت الكنية عند العرب شحنة إيجابية في اللطف واحترام المكنى, قال ابن عاشور: (والقول اللين: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال, بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله, فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين, واللين: حقيقة من صفات الأجسام, وهو: رطوبة ملمس الجسم وسهولة لتيه, وضد اللين الخشونة, ويستعار اللين لسهولة المعاملة والصفح)^{٢١} .

وهذا الخلق الذي أمر الله به أنبياءه هو دعوة لمجافاة الغلظة في القول واتّباع اللطف واللين في الكلام لفظاً وأسلوباً لأنه أدعى للتأثير في الآخر المتلقي , لذلك علّق تعالى الرجاء بهذا الأسلوب على إيقاظ قلب فرعون المتكبر , (فالقول اللين لا يشير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان)^{٢٢} , وقد لقّنهما الله تعالى ما يقولانه : ((فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا نَبِيعُ الْهُدَى, إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)) ٤٧-٤٨/ طه, ويبدو أن هذا مخاطبتهم بهذا القول لفرعون على ما هو عليه من ادّعاء الربوبية والاستكبار لا يخلو من جرأة في القول , لكن الجرأة هذه لا تخالف اللين , إنها جرأة الحق ووضوح المطالب الرسالية التي ينبغي أن تقال بغير مداينة, وإنما اللين في احترام المقام وعدم خدش مسامعه ما يغضبه من كلام مؤذٍ كمناداته مثلاً بالكفر أو الفسق أو التعبير عما يقلل من احترامه, جاء

في الميزان : (وليس مع ذلك فيما أمرا أن يخاطباه به من قولهما: "إنا رسولا ربك" إلى آخر الآيتين خشونة في الكلام وخروج عن لين القول الذي أمرا به أولاً , فإن ذلك حق القول الذي لا مناص من قرعه سمع فرعون من غير تملق ولا احتشام وتأثر من ظاهر سلطانه الباطل وعزته الكاذبة)^{٢٣} ,

فدلهم على التعبير السليم بخمس جمل قصار تضمنت أصل المهمة وبيان محتواها وذكر الدليل والسند وترغيب المؤمنين وتهديد المعارضين^{٢٤} , وكان التهديد مدفوعاً عنهما بالوحي , وكأنهما يتركان التهديد _ الذي ينبغي أن يكون بلغة شديدة _ إلى الله سبحانه , فهو المهدد وهما الناقلان فقط , وذلك أدعى للتخفيف من عنف القول به بشكل خاص .

وفي قبال ذلك نجد أن الخطاب الفرعوني قد اتسم باستعمال وسائل العنف بشتى الصور , كالسخرية الخلقية والاستعلاء السلطوي والمقارنة بالملك كما جاء في قوله تعالى : (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ , أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ) ٥١-٥٢/ الزخرف , قصد إلى إذلال شخصية موسى "ع" وتهوينه اجتماعياً بإهانة خلقية جارحة "فصاحة اللسان" بهدف التعالي والتكبر بعد ما عجز عن تقديم أدلته الفكرية في مواجهته ليرضي بذلك غروره بعدم الفشل , وكذلك التلاعب العاطفي وإثارة مشاعر التهوين كما في قوله تعالى : (قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنِي فِي نَازِلٍ وَلِيَدًا وَلَبِئْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ , وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ١٨-١٩ / الشعراء , ووظف التهديد المباشر واستغلال السلطة في قوله : (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ , قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ , قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ , قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ , قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) ٢٥-٢٩ / الشعراء , ويعد التهئيس والتجسيم وتقليل القيمة وتبرر الفعل المضاد بأهداف ومآرب (عدم البراءة) كما ورد في: (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ , إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ , وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) ٥٣-٥٥ / الشعراء , فشتان بين الخطاب اللين لموسى وبين العنف اللغوي لفرعون .

ومن لطف الأسلوب الكلامي ما ورد في خطاب إبراهيم "ع" لأبيه , قال تعالى : ((وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا , إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا , يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا , يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا , يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)) ٤١-٤٥ / مريم , إذ نلاحظ قمة الأدب في مخاطبة الأب باستعمال وسائل لغوية كالنداء (يا أبت) , والاستفهام غير الحقيقي الذي حمل شيئاً من الإيحاء بأصل وضعه بطلب معرفة الشيء غير معلوم عند السائل , واستعمال (من) التبعيضية في (من العلم) , وإرفاق الأمر بالاتباع بالهداية ليوحي بمعنى العرض لا الأمر المباشر , وإخباره

بخوفه على أبيه ، وذكر الزمخشري أن النبي إبراهيم "ع" حين أراد أن ينصح أباه في ارتكابه الشنيع بعبادة الأصنام رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال اللفظ والرفق والأدب والخلق الحسن فطلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منبه موقظ ، ثم ثنى بدعوته مترقياً فلم يصف أباه بالجهل ولا نفسه بالعلم ، لكنه قال : إن معي شيئاً من العلم ليس معك ، ثم ثلث بتنبيطه عما كان عليه بأن الشيطان هو الذي ورطه فيه ، ثم ربح بتخويفه سوء العاقبة ولم يصرح بأن العقاب لاحق له ولاصق به ، لكنه قال : أخاف أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب وجعل دخوله في ولاية الشيطان أكبر من العذاب ^{٢٥} .

فهذه الوسائل اللغوية التي توسل بها إبراهيم "ع" لتلطف دعوته لأبيه وترقق خطابه إياه وبلغ فيها مبلغاً في أدب الحوار لم تمنع أباه من الرد العنيف له : ((قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)) ٤٦/مريم ، فجابهاه بالإنكار عليه فعل الرغبة عن الآلهة ونسبها لنفسه "آلهتي" ، وناداه باسمه الصريح لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بنداؤه تنبيهه على سوء فعله ، كأنه في غيبة عن إدراك فعله ، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه ^{٢٦} ، ولم يقابل عبارة إبراهيم: "يا أبت" بـ"يا بني" ^{٢٧} ، ثم توعده بالرجم والهجر، والملحظ هنا في استعمال لفظ الهجر دون الألفاظ الأخرى في الحقل الدلالي نفسه: ترك ، ابتعد ، تخلص عنه ، انفصل عنه، جافى، تجنب ، قد حملت لفظة الهجر دلالة صارخة على عنف قائلها تجاه مخاطبه ، فالهجر ينماز على غيره بدلالته على الطرد والنبد ، وفي استعمال تهجري دون أهجرك قال ابن عاشور : (وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخلع إشعاراً بتحقيقه) ^{٢٨} ، فكل الملطفات اللغوية التي استعملها إبراهيم "ع" في خطابه لأبيه قد قوبلت بإساءة وتحقير وخطاب عنيف ينبئ عن الغلظة والشدة التي كانت في أبيه ، ف(قد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعنجهية بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والركة ، فدل ذلك على أنه كان قاسي القلب ، بعيد الفهم ، شديد التصلب في الكفر) ^{٢٩} ، فشتان بين الأسلوبين : اللطيف والعنيف ، ونكاد نستشعر تعاطفنا مع دعوة إبراهيم "ع" ضد أبيه من خلال هذه الصورة الفنية التي رسمها هذا الحوار، نتيجة لطف الأسلوب وقسوة الآخر .

في حين نجد خطاب إبراهيم "ع" وابنه اسماعيل "ع" خطاباً يتسم باللفظ واللين والأدب الجم، قال تعالى : (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ١٠٢/الصافات ، فخطاب الأب الحليم يعرض فيه ذبح ابنه، ويراجعه في هذا الأمر الإلهي ويطلب فيه رأيه ، مفتتحاً خطابه ببناء التحبب "يا بني" ، (فماذا يكون من أمر الغلام ، الذي يعرض عليه الذبح ، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه؟ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضى كذلك وفي يقين : "يا أبت" في مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لا

يفقده أدبه ومودته ، "افعل ما تؤمر" فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه ، يحس أن الرؤيا إشارة ، وأن الإشارة أمر ، وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب ، ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة : "ستجديني إن شاء الله من الصابرين" ^{٣٠} ، فلم يذكر أنه الرأي الذي رآه تواضعاً لأبيه وامتنالاً لأمر الله تعالى ، قال صاحب الميزان : (ولم يذكر أنه الرأي الذي رآه هضماً لنفسه وتواضعاً لأبيه كأنه لا رأي له قبال رأيه ، ولذلك صدر القول بخطابه بالأبوة ، ولم يقل : إن شئت فافعل ذلك ، ليكون مسألته القطعية تطيباً لنفس أبيه ، ... ، ثم في قوله "ستجديني إن شاء الله من الصابرين" تطيب آخر لنفس أبيه ، وكل ذلك من أدبه مع أبيه) ^{٣١} ، وتلك الأساليب والملطفات في حوار الأب مع ابنه ترسم صورة التعامل الإسلامي في احترام الآراء ومعاملة الوالدين بالحسنى ، فلنا فيهم عليهم السلام أسوة حسنة .

وفي حوار آخر بين يعقوب وأخوة يوسف ، إذ نلحظ تغيراً كبيراً بين خطاب الإخوة بينهم وبين خطابهم لأبيهم، ففي الخطاب الأول تشيع وسائل التعالي والنية السيئة ، في حين كان خطابهم مع أبيهم على نحو من اللطف واللين لاستعطافه ، قال تعالى : ((لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسَائِلِينَ، إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَغَضِبُوا عَلَيْهِ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)) ٨_٩/يوسف ، ففي هذا الخطاب تضافت كلمات الانفعال السلبي مع حب أبيهم ليوسف، مع تقديم مقدمات المكيدة أثناء مشاورتهم في معالجة الانفعال السلبي هذا ، فهم "عصبة" يعتد بها ، وأبوه "في ضلال مبين" ، فبلغت تلك المبررات عندهم مبلغاً استباحوا فيه حرمة دم أخيهام أو إقصائه مع اعترافهم بأن عملهم هذا ليس من الصلاح "فتكونوا من بعده قوماً صالحين" ، فعلى تلك النية المبيتة لمكيدة أبيهم جاءوا يستعطفون أباهم بلغة لطيفة : ((قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) ١١_١٢/يوسف ، مستعملين أسلوب النداء بالأبوة "يا أبانا" كما رأينا في خطاب إبراهيم لأبيه ، ثم بدأوا مرادهم بأخذ يوسف بسؤال إنكاري عن علة عدم الائتمان ، الأمر الذي ذهب فيه المفسرون إلى أن يعقوب قد أحس منهم ما يوجب عدم ائتمانهم على يوسف ، فسألهم عن علة ذلك أدعى لإنزاله عن رأيه ^{٣٢} مع كثرة التأكيدات في "إننا له لناصرحون" و "إننا له لحافظون" وتقديم "له" على "ناصرحون" وحافظون" وكأنهم يقدمون الإغراءات اللغوية لعرض أخذ يوسف وترويقه في اللعب والرتع ، لأنهم يعلمون أن مما يسر أباهم أن يكون يوسف فرحاً، فقدموا لذلك كل المؤهلات للقبول بإرساله معهم وبأسلوب يشي بتعاطفهم مع أخيهام وبحثهم عن راحته واجتماعهم على حفظه ورعايته ، حتى تحقق لهم مرادهم ، (وفي هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم عبرة من تواطىء أهل الغرض الواحد على التحيل لنصب الأحابيل لتحصيل غرض دنيء ، وكيف ابتدأوا بالاستفهام عن عدم أمنه إياهم على أخيهام

وإظهار أنهم نصحاء له ، وحققوا ذلك بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد ، ثم أظهروا أنهم ما حرصوا إلا على فائدة أخيه وأهم حافظون له وأكدوا ذلك أيضاً^{٣٣}

ولئن كان حوارهم اللطيف هنا مع النبي يعقوب "ع" بمكيدة واحتيال ، فقد كان حوارهم مع يوسف "ع" في مشهد آخر حين كان ملكاً بعد حادثة أخذ أخيه باستعطاف حقيقي : ((قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ))^{٧٨}/يوسف ، نادوه بصفة التعظيم أيضاً ، وقدموا له ما يثير عطفه في مراعاة شيخوخة أبيهم ، ف(وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه ، وهي : حنان الأبوة ، وصفة الشيخوخة ، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف عليه السلام بخبر أبيهم ،...، وجملة (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب . والتقدير : فلا تردّ سوء النّا لأنّا نراك من المحسنين فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أباً شيخاً كبيراً)^{٣٤} ، وتقديمهم البديل عن أخيه ، وبلغوا بذلك غاية التعاطف واللفظ الكلامي ، وقد بقي يوسف "ع" محافظاً على صلابته ومقامه الاجتماعي بوصفه العزيز الحاكم : ((قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَنَظَالِمُونَ))^{٧٩}/يوسف ، وهنا نلاحظ تعليل رفض طلبهم بأسلوب الجمع ، واستعمال "من وجدنا" دون "من سرق" ، قال الآلوسي: (وإيثار صيغة المتكلم مع الغير مع كون الخطاب من جهة اخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك وللإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أهل الحل والعقد ، وإيثار "مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ" على (من سرق متاعنا) الأخصر لأنه أوفق بما وقع في الاستفتاء والفتوى أو لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام)^{٣٥} ، فأسلوب يوسف "ع" كان بلغة الفتوى التي توجه بكلام عام غير مخصص لمخاطب ، مع استعماله ضمير الجمع الدال على مقامه الاجتماعي وسلطته .

وفي مشهد آخر جاؤوا يرققونه على وضعهم : ((فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ))^{٨٨}/يوسف ، تكرر النداء أيضاً وبصفة التبجيل والتعظيم ، ثم قدموا لطلبهم "أوف لنا الكيل" استعطافاً بالغاً بذكر ضرر الأهل وشدة ما لاقوه من الفقر والحاجة ، واستعملوا لفظ "تصدق" التي تدل على المنح والتفضل والمسامحة ، إلا أن استعمال هذا اللفظ دون غيره يضر بعداً تأثيرياً في المخاطب ، إذ الصدقة (العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله ومنه قول : الحسن لمن سمعه يقول اللهم تصدق عليّ : إن الله تعالى لا يتصدق ، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب ، قل : اللهم أعطني ، أو تفضل عليّ ، أو ارحمني)^{٣٦} ، فكان هذا اللفظ بهذه الدلالة يحمل شحنة إيجابية في إثارة التعاطف والتذكير بالله تعالى وجزيل ثوابه خاصة لمن بلغ الضرر أهلهم ، فهذا الأسلوب في التمسك والاستعطاف قد رقق قلب يوسف فما تمالك حتى عرفهم عن نفسه .

وأسلوب الاعتذار بصورة عامة يتضمن لطفاً بالغاً عن خطأ أو تبرير تصرف يراه المخاطب خاطئاً ، ليهدف إلى تصحيح فكرة أو التماس عذر ، ومما جاء في الاعتذار حوار هارون وموسى بعد ما رجع من ميقات ربه ووجد قومه يعبدون العجل : ((قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)) ٩٤/طه ، فاستعمل في اعتذاره النداء بـ"ابن امي" ، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع ، قال ابن عاشور : (وابنُ الأم : الأخ . وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أم) لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أوامر الأخوة ، وهي أصرة الولادة من بطن واحد والرضاعة من لبان واحد) ٣٧ ، إذ امتص هارون "ع" غضب أخيه عليه واندفاعه في جر لحيته معتقاً إياه باستعمال النداء بهذا الوصف تذكيراً بالرابط الأسري وأصرة الأخوة ترفيقاً له وللجملة بعده "لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي" ، فلو حذف النداء من القول وترك القول على ما هو عليه من النهي لما تبادر إلى أذهاننا أنه في الاعتذار والترقيق أو الاستعطاف ولتحول القول إلى استراتيجية مباشرة تنبئ عن صراع الأخوين .

وفي السياق ذاته يتحامل النبي موسى "ع" على السامري بقوله : (قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) ٩٧/طه ، فالطرد والنهر والحكم عليه بعدم المخالطة كلها أساليب عنيفة حتم إجراءها ما كسبت يدها من تضليل الأمة ، قال الزمخشري : (عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً ، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة ، حم الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه) ٣٨ ، وأنصع مظاهر العنف اللغوي هنا ما وظفه موسى بقوله : (إلهك) والمراد بها السخرية والتهمك ، فليس هو الإله على الحقيقة وإنما المراد تهوين شأنه ، ومثل صنيعه به ما فعله إبراهيم "ع" في آلهة قومه ٣٩ ، فالقصد المشترك هو الإذلال بطريقة السخرية ، وهي أشد الطرق عنفاً عند استعمالها في ظروف مؤاتية ، قال ابن عاشور : (وبعد أن أوعد موسى السامري بين له وللذين اتبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنه لا يستحق الإلهية لأنه معرض للامتهان والعجز ، .. ، وأضاف الإله الى ضمير السامري تهكما بالسامري وتحقيراً له) ٤٠

والملاحظ البارز في الآية الكريمة هو المستوى الصوتي فيها ، إذ نكاد نلمس غضب موسى "ع" وغيرته على دينه ، وذلك بإكثار عناصر التوكيد في : (لنحرقنه ، لننسفنّه ، نسفاً) ، وتتابع الجمل بصورة تعبر عن انفعال نفسي مؤثر انعكس على طباع موسى "ع" بسبب غيرته الدينية ودفاعه عن عقيدته .

ويتجلى العنف في أقصى صوره الاجتماعية بالتهوين والسخرية بذكر العيوب الخلقية أو الاستهزاء العام ، وطغى ذلك الأسلوب في ردود الأقوام على أنبيائها ، كما ذكرنا في قوله تعالى عن لسان فرعون : ((أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)) ٥٢ /الزخرف ، ولم يخلُ نبي من مواجهة تلك السخرية حتى

نبيينا العظيم "ص" قال تعالى : ((وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُرُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا، إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا، أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)) ٤١-٤٤/الفرقان، فالسخرية التي صدرت من خصوم النبي "ص" في حال رؤيتهم له بتواضعه ، تجلت في التهوين باستعمال "هذا" المراد به التحقير والتقليل، وتوجيه الكلام بصورة الإقرار مع أسلوب الاستفهام الإنكاري، قال الزمخشري : (هذا: استصغار ، و"بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا" وإخراجه في معرض التسليم والإقرار ، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ، ولو لم يستهزئوا لقالوا : أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً) ^{٤١} ، فهذه السخرية موجهة إلى شخص النبي "ص" وسماته في التواضع والبساطة على غير ما اعتادوه اجتماعياً برفعة ذوي الشأن والسلطة ، فكان منطلق السخرية ارتكازهم على أعراف اجتماعية سائدة ، قال جان جاك لوسركل : (إن العنف الكامن في الإهانة ليس راجعاً إلى النبوة العالية للصوت الذي يحملها ، بل إنها مقحمة في ممارسة راسخة ، في سلسلة من الالفاظ والحركات التعبيرية ، وسلسلة من التأثيرات والتوقعات شبه التقليدية ، وهذا يعني ، على سبيل المثال ، انني عندما أواجه بإهانة ، فإن مدى خياراتي سيكون محدوداً ، وهكذا يكون عليّ إما أن أرد الإهانة ، أو أفقد كرامتي) ^{٤٢} ، على أن القرآن الكريم قد رد سخريتهم بسخرية أخرى ، إذ وصفهم بالأنعام بل أضل سبيلاً، فقابل عنفهم بعنف آخر ، من خلال توصيفهم بهذا الوصف ، وهذا دليل على أن العنف قد يرد في بعض المواضع من ضرورات الرد لحفظ الكرامة وماء الوجه .

وفي مواضع الدعاء تشيع وسائل الملطفات الكلامية بوصفها جزءاً من المناجاة والعبودية ، ففي قوله تعالى : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الصُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ٨٣/ الأنبياء ، إذ نلاحظ لطف السؤال وطريقته في طلب كشف الضر بعد كل ما لاقاه النبي أيوب "ع" من معاناة وألم من فقد المال والأموال والصحة ، فلم تنته تلك الحوادث عن استعمال اللغة اللطيفة والأسلوب اللين في دعائه تأديباً مع الله تعالى ، إذ لم يصرح بطلبه بصورة مباشرة وعبر عنه بالمس الخفيف ، قال صاحب الميزان : (ولم يذكر "ع" حاجته صريحاً على حد ما تقدم من أدعية آدم ونوح وموسى ويونس عليهم السلام ، هضماً لنفسه واستحقاقاً لأمره ، وأدعية الأنبياء كما تقدم تأتي خالية من التصريح بالحاجة إذا كان مما يرجع إلى أمور الدنيا ،....، وبوجه آخر: ذكره السبب الباعث إلى المسألة كمس الضر والصفة الموجودة في المسؤول المطمعة للسائل في المسألة ككونه تعالى أرحم الراحمين والسكوت عن ذكر نفس الحاجة أبلغ كناية عن أن الحاجة لا تحتاج إلى ذكر) ^{٤٣} ، ومن ثم كانت صيغ الدعاء وأساليبه ميداناً رحباً لدراسة الملطفات الكلامية، عسى أن يوفقنا الله للكتابة فيها في قابل الأيام .

الخاتمة :

_ إن اللفظ والعنف متأصلان في تفكير الفرد , وهما سمتان نفسيتان, تفعلان في ظروف مؤاتية , ويظهران بقوالب لغوية توظف فيها كلمات وأساليب من شأنها أن تؤدي بالآخر مشاعر إيجابية أو سلبية بحسب رغبة المرسل.

_ نحذر من انتشار ألفاظ الموت والقتل والرعب والإرهاب في مجتمعاتنا وفي وسائل الإعلام , لما لها من تأثير سلبي على تفكير المجتمع وسلوكه , من خلال حملتها العنيفة في اللغة .

_ شيوع ظاهرة اللفظ اللغوي في أساليب الأنبياء وحواراتهم مع أقوامهم في حين قولوا بعنف لغوي صارخ تجلى في ألفاظ وأساليب مختلفة كلها تهدف إلى رفض قبول الدعوة وتهوين حاملها اجتماعياً , وهذا جزء من غلظة المجتمع في تقبل الأفكار التحررية ومخالفة أعرافهم الدينية أو غيرها .

_ ندعو إلى التمسك والاعتداء بالنهج القرآني في التعامل مع الآخر المختلف وحفظ الكرامات والحقوق من خلال الاستعمال اللطيف للألفاظ والأساليب لما لذلك من أثر في انتشار ظواهر إيجابية نبيلة في المجتمع , وخلق أواصر أسرية وعلاقات عامة متينة تسهم في تطور المجتمع وتقويمه .

المصادر

- _ القرآن الكريم
- _ إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية/ عبد الهادي بن ظافر الشهري, ط١ , دار الكتب الجديدة المتحدة , بيروت_لبنان, ٢٠٠٤م
- _ اطلالات النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين مختارات معربة بإشراف وتنسيق: عز الدين مجدوب , المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون , بيت الحكمة , ٢٠١٢
- _ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي , ط١, مدرسة الإمام علي بن أبي طالب "ع" , قم , ١٣٧٩هـ.ش .
- _ البيان والتبيين / عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) , ط١, دار ومكتبة الهلال , بيروت , ١٤٢٣ هـ .

- _ تأويل مشكل القرآن / أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، ط١ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .
- _ التحرير والتنوير ، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد / محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) ، ط١ ، الدار التونسية للنشر _ تونس ، ١٩٨٤م .
- _ التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور / د. مصطفى حجازي ، ط٩ ، المركز الثقافي العربي _ المغرب ، ٢٠٠٥م
- _ الخصائص / أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، ط٤ ، دار الكتب المصرية . القسم الأدبي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة ، ٢٠٠٦م
- _ دور الكلمة في اللغة / ستيفن أولمان ، ترجمة : كمال محمد بشير ، ط١ ، مكتبة الشباب للنشر ، الأردن ، ١٩٩٧م
- _ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، ط١ ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٤١٥هـ
- _ شرح الرضي لكافية ابن الحاجب/ تحقيق : د. يحيى بشير مصري، ط١ ، منشورات الإدارة العامة للثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود _ السعودية ، ١٩٩٦م
- _ عنف اللغة / جان جاك لوسركل ، ترجمة : د. محمد بدوي ، مراجعة : سعد مصلوح ، ط١ ، المنظمة العربية للترجمة ، الدار العربية للعلوم ، المركز الثقافي العربي _ بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥م
- _ في ظلال القرآن / سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ) ، ط١٧ ، دار الشروق . بيروت ، ١٤١٢هـ
- _ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، ضبطه وصححه : مصطفى حسين احمد، ط٣ ، دار الريان للتراث . القاهرة ، دار الكتاب العربي . بيروت ، ١٩٨٧م
- _ المعاني مصطلحات في علم النفس / د. بديع القشاعلة ، ط١ ، شركة السيكلوجي للنشر والتوزيع ، فلسطين ، ٢٠١٩م
- _ الميزان في تفسير القرآن / العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، ط٢ ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة _ إيران ، د.ت

- _ معجم العين / الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ) , تحقيق: د. مهدي المخزومي , د. إبراهيم السامرائي , ط١, دار ومكتبة الهلال, القاهرة
- _ معجم لسان العرب : محمد بن مكرم ابو الفضل ابن منظور الأفريقي (ت: ٧١١هـ) , تحقيق : اليازجي وجماعة من اللغويين , ط٣, دار صادر بيروت , ١٤١٤هـ
- _ موسوعة لالاند الفلسفية / أندريه لالاند , تعريب: خليل أحمد خليل , تعهده وأشرف عليه : أحمد عويدات , ط٢, منشورات عويدات , بيروت _باريس , ٢٠٠١م
- _ معجم مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا, تحقيق : عبد السلام محمد هارون د.ط , دار الفكر للطباعة والنشر , الطبعة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الهوامش

- ١ معجم مقاييس اللغة / ابن فارس , مادة (لفظ) : ٢٥٠/٥
- ٢ معجم لسان العرب/ ابن منظور : ٣١٦/٩
- ٣ معجم العين / الخليل الفراهيدي : ١٥٧/٢
- ٤ معجم مقاييس اللغة , مادة (عنف) : ١٥٨/٤
- ٥ دور الكلمة في اللغة / جان جاك لوسركل : ١٧٧
- ٦ ينظر: المعاني مصطلحات في علم النفس / د. بديع القشاعلة : ١١٣
- ٧ موسوعة لالاند الفلسفية : ١٥٥٥/٣
- ٨ التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور / د. مصطفى حجازي : ١٦٥
- ٩ ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية : ٦٣٩/٢ _ ٦٤٠, والمعاني مصطلحات في علم النفس : ٥٦
- ١٠ البيان والتبيين : ٩٠/١
- ١١ عنف اللغة / جان جاك : ٣٩٥ _ ٣٩٦
- ١٢ ينظر: دور الكلمة في اللغة : ١٨١
- ١٣ ينظر: المنطق والمحادثة / بول غرايس , ترجمة محمد الشيباني , بحث ضمن كتاب : إطلاقات النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين : ٦٢٨/٢ وما بعدها
- ١٤ لعلماننا إشارات مهمة في هذا الصدد , وأظهر أقوالهم ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين : ٩٠/١ _ ٩١
- ١٥ الخصائص/ابن جني : ٣٣/١
- ١٦ ينظر: استراتيجيات الخطاب / عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٩٦
- ١٧ الميزان في تفسير القرآن / السيد الطباطبائي : ٢٩٧/٦
- ١٨ الكشف: ١٨/٣
- ١٩ ينظر: تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة : ١٦٠
- ٢٠ شرح الرضي على الكافية : ٥٢٧/٢
- ٢١ التحرير والتنوير: ٢٢٥/١٦
- ٢٢ في ظلال القرآن / سيد قطب: ٢٢٣٦/٤
- ٢٣ الميزان في تفسير القرآن : ١٥٨/١٤
- ٢٤ ينظر تفسير الأمل / الشيرازي : ٧/١٠

- ٢٥ الكشف : ١٨/٣
 ٢٦ ينظر: التحرير والتنوير: ١١٩/١٦
 ٢٧ ينظر الكشف: ٢٠/٣
 ٢٨ التحرير والتنوير: ١٢٠/١٦
 ٢٩ المصدر نفسه: ١١٨/١٦
 ٣٠ في ظلال القرآن : ٢٩٩٤/٥ _ ٢٩٩٥
 ٣١ الميزان في تفسير القرآن : ٢٧٣/٦ _ ٢٧٤
 ٣٢ ينظر: الكشف: ٤٤٨/٢
 ٣٣ التحرير والتنوير: ٢٢٧/١٢
 ٣٤ التحرير والتنوير: ٣٧/١٣
 ٣٥ روح المعاني /الألوسي: ٣٣/٧
 ٣٦ الكشف: ٥٠٠/٢
 ٣٧ التحرير والتنوير: ٢٩١/١٦
 ٣٨ الكشف: ٨٤/٣
 ٣٩ ينظر: سورة الأنبياء ٥٧ _ ٥٨
 ٤٠ التحرير والتنوير : ٢٩٧ / ١٦
 ٤١ الكشف: ٢٨١/٣
 ٤٢ عنف اللغة : ٣٩٦ _ ٣٩٧
 ٤٣ الميزان في تفسير القرآن : ٢٨٧/٦